

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٩ - سُورَةُ الْفَجْرِ

مكية . وآيها تسع عشرة روى النسائي^(١) عن جابر قال : صلى معاذ صلاة . ف جاء رجل فصلى معه ، فطول . فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف . فبلغ ذلك معاذ ، فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل النبي فقال : يا رسول الله ! حيث أصلى معه يطول على . فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلقت ناقة ، فقال رسول الله ﷺ : أفتانا يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى ؟

(١) أخرجه في : ١١ - كتاب الافتتاح ، ٦٣ - باب القراءة في المغرب بسبح اسم ربك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالْفَجْرِ)

[٢] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

[٣] (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

[٤] (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ)

[٥] (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ)

« وَالْفَجْرِ » أى الصبح كقوله تعالى^(١) (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) أقسم تعالى بآيته ، لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء وانتشار الناس وسائر الحيوانات ، طلب الأرزاق . وذلك مشاكل لنشور الموتى من قبورهم . وفيه عبرة لمن تأمل « وَلَيَالٍ عَشْرٍ » هى ، على قول ابن عباس ومجاهد ، عشر ذى الحجة ، لأنها أيام الاهتمام بنسك الحج . وفي البخارى^(٢) عن ابن عباس مرفوعاً : ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام . يعنى عشر ذى الحجة .

وحكى ابن جرير^(٣) أنه قيل عنى بها عشر المحرم . والرازى ، قولاً أنها العشر الأواخر من رمضان ، لما فيه من ليلة القدر ، ولما صح^(٤) أنه صلوات الله عليه كان إذا دخل العشر الأخير

(١) [٨١ / التكوير / ١٨] . (٢) أخرجه الترمذى فى : ٦ - كتاب الصوم ،

٥٢ - باب ما جاء فى العمل فى أيام العشر ، حديث رقم ٧٥٧ .

(٣) انظر الصفحة رقم ١٦٨ من الجزء الثلاثين ، (طبعة الحلبي الثانية) .

(٤) أخرجه البخارى فى : ٣٢ - كتاب فضل ليلة القدر ، ٥ باب العمل فى العشر

الأواخر من رمضان ، حديث رقم ١٠٢٧ ، عن عائشة .

من رمضان شدّ مئزره وأحى ليله وأيقظ أهله . وثمة وجه آخر في العشر . وهو أنها الليالي التي يحلو لك فيها الليل ويشد ظلامه ويفشى الأفق سواده . وتلك خمس من أوائله وخمس من أواخره . وإن لفظة (عَشْرٍ) بمثابة قوله في السور الآتية (إِذَا يَفْشَى) (إِذَا سَجَى) مما يبين وجه العبرة ويجليها أتم الجلاء ، ولا بعد في هذا المعنى . بل فيه توافق لبقية الآيات . وبالجملة فأوضح المخصصات ما عضده دليل أو أيده قرينة أو حاكي نظائره . والله أعلم .

« وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ » يعنى الخلق والخالق . فالشفع بمعنى جميع الخلق ، للازدواج فيه كما في قوله تعالى (١) (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . قال مجاهد : كل خلق الله شفيع . السماء والأرض . البر والبحر . الجن والإنس . الشمس والقمر . والكفر والإيمان . والسعادة والشقاوة . والهدى والضلالة . والليل والنهار .

(وَالْوَتْرِ) هو الله تعالى لأنه من أسمائه . وهو بمعنى الواحد الأحد . فأقسم الله بذاته وخلقته . وقيل : المعنى بالشفع والوتر ، جميع الموجودات من الذوات والمعاني . لأنها لا تخلو من شفيع ووتر .

قال القاضي : ومن فسرها بالبروج والسيارات أو شفيع الصلوات ووترها أو بيومي النحر وعرفة ، فلعله أفرد بالذكر من أنواع المدلول ، مارآه أظهر دلالة على التوحيد ، أو مدخلاً في الدين ، أو مناسبة لما قبلهما .

قال ابن جرير (٢) : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالشفيع والوتر ، ولم يخص نوعاً من الشفع ولا من الوتر ، دون نوع ، بخبر ولا عقل ، وكل شفيع ووتر ، فهو مما أقسم به . مما قال أهل التأويل أنه داخل في قسمه هذا ، لعدم قسمه بذلك .

وقد قرئ (الوتر) بفتح الواو وكسرهما . وهما لغتان .

(١) [٥١ / الذاريات / ٤٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ » أى إذا يَمْضَى ، كقوله^(١) (وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ) والتقييد بذلك لما فى التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة . فى الليل الراحة التى هى من أعظم النعم . وفى النهار المكاسب وغيرها . وحذف الياء للتخفيف ولتوافق رؤوس الآى . ومن القراء من حذفها وصلا ووقفا . ومنهم من خصه بأحدهما ، كما فصل فى كتب الأداء . « هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ » قال ابن جرير^(٢) : أى هل فيها أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حجر . وإنما عني بذلك : أن فى هذا القسم مكنتى لمن عقل عن ربه ، مما هو أغلظ منه فى الأقسام .

وقال الرازى : المراد من الاستفهام التأكيد . كمن ذكر حجة باهرة ثم قال : هل فيما ذكرته حجة ؟ والمعنى أن من كان ذائب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية . فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالفه . أى على طريقة قوله تعالى^(٣) (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) وإنما أوثرت هذه الطريقة هضمًا للخلق ، وإيدانًا بظهور الأمر . و (الحجر) العقل . لأنه يحجر صاحبه ، أى يمنعه من ارتكاب ما لا ينبغى . والمقسم عليه محذوف . وهو (ليعذبن) كما ينبىء عنه قوله تعالى :
القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)

[٧] (إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ)

[٨] (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ)

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » أى ألم تعلم علماً يقينياً كيف عذب ربك عاداً ،

(١) [٧٤ / المدثر / ٣٣] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٣) [٥٦ / الواقعة / ٧٦] .

فيمذب هؤلاء أيضا ، لا اشتراكهم فيما يوجبهم من جحود الحق والمعاصي . و (عَادٍ) قبيلة من العرب البائدة . وتلقب بإرم أيضا . وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودًا عليه السلام . فكذبوه فأهلكهم بريح صرصر عاتية . فقوله تعالى «إِرمَ» عطف بيان لعاد «ذَاتِ الْعِمَادِ» أى ذات الخيام المعمدة ؛ لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون العيوث وينتقلون إلى السكلا حيث كان . ثم يرجعون إلى منازلهم فى الأحقاف فى حضرموت . وقيل : كنى بالعماد عن العلو والشرف والقوة . إلا أن الأشبه - كما قال ابن جرير^(١) - بظاهر التثني هو الأول . وهو أنهم كانوا أهل عمد سيطرة . لأن المعروف فى كلام العرب من العماد ، مأمعد به الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البناء . ثم قال : وتأويل القرآن إنما يوجه إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ما وجد إلى ذلك سبيل ، دون الأنكر . « أَلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ » أى فى العظم والبطش والأيدى .

قال ابن كثير : كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقوام بطشًا . ولهذا ذكروهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم . فقال^(٢) (وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَأَذْكُرُوا لآلَاءِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ) وقال تعالى^(٣) (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) .

تنبية :

قال الإمام الدرّاكه ابن خلدون فى (مقدمة) تاريخه فى سياق الأخبار الواهية للمؤرخين مأمثاله : وأبعد من ذلك وأعرق فى الوهم ما يتناقله المفسرون فى تفسير سورة (والفجر) فى

(١) انظر الصفحة رقم ١٧٧ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٧ / الأعراف / ٦٩] . (٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

قوله تعالى (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) فيجملون لفظه (إِرَمَ) اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أى أساطين، وينقلون أنه كان لعماد بن عوص بن إرم ابنان . هما شديد وشداد . ملكا من بعده . وهلك شديد فخلص الملك لشداد . ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنين مثلها . فبنى مدينة (إرم) في صحارى عدن في مدة ثمانمائة سنة . وكان عمره تسعمائة سنة . وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت . وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته . حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبرى والثعالبي والزحشرى وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبدالله بن قلابه ، من الصحابة ، أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه . وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه . فيبحث عن كعب الأخبار وسأله عن ذلك فقال : هي (إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له . ثم التفت فأبصر ابن قلابه فقال : هذا ، والله ، ذاك الرجل .

قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض . وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانه متعاقبا . والأدلاء تقص طرقه من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم ، ولو قالوا إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة . وبعضهم يقول إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى المهديان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة (ذات العماد) أنها صفة (إرم) وحماوا العماد على الأساطين . فتمين أن يكون بناء . ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير (عاد إرم) على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه

بالأفانصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات . وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم . بما اشتهر من قوتهم . لأنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت ، كما في قراءة ابن الزبير ، على إضافة الفصيصة إلى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة . وإلياس مضر ، وربيعة نزار . وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى . وسبقه الحافظ ابن كثير في تفسيره حيث قال : ومن زعم أن المراد بقوله (إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) مدينة إما دمشق أو إسكندرية ، ففيه نظر . فإنه كيف ياتم الكلام على هذا ، إن جعل (إرم) بدلا أو عطف بيان ؟ فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعماد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد ، لأن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم قال : وإنما نبهت على ذلك لثلاث يغتر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها (إرم ذات العماد) ، مبنية بلبن الذهب والفضة الخ . فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ؛ إن صدقهم في جميع ذلك . وحكاية عبد الله بن قلابة الأعرابي ليس يصح إسنادها . ولو صح إلى ذلك الأعرابي ، فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتخيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطر الذهب والفضة وألوان الجواهر والياواقيت واللآلئ والإكسير الكبير . لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها . فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء . فبأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهديانات . ويطنزون بهم . والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ)

[١٠] (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ)

[١١] (الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ)

[١٢] (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ)

[١٣] (فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ)

[١٤] (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

« وَثَمُودَ » وهم قوم صالح عليه السلام « الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ » أى قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا فيها بيوتاً . كما في قوله ^(١) (وَكَانُوا يَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ) والباء ظرفية . والمجرور متعلق بـ (جابوا) أو هو حال من الفاعل أو المفعول . وقرى بالياء وبإسقاطها . كما في (يَمْرٍ) والوادي هو وادي القرى . كانت منازلهم فيه . كما قاله ابن إسحق « وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ » أى الحمود الذين يشدون له أمره . أو هى أوتاد يشد بها من يعبده . أو القوى والعدد والعدد التى تم له بها ملكه ، ورسخ بطشه وسلطانه ، ومنه قولهم ، لمن تمكن فى أرض ما : ضرب بها أوتاداً « الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ » صفة للمذكورين : عاد وثمود وفرعون . أى تجاوزوا ماوجب عليهم إلى ما حظر من الكفر بالحق والعتو والتمرد والبغى فى بلادهم ، اغتراراً بالقوة وعظم السلطان « فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ » أى الضرر والإيذاء وهضم الحقوق « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » أى أنزل بهم عذابه ، وأحل بهم نقمته ، بما طغوا فى البلاد وأفسدوا فيها . وقد بين تعالى إهلاكهم مفصلاً

(١) [١٥ / الحجر / ٨٢] .

في غير ما سورة وآية . و (السوط) إما مصدر (ساطه) أى خلطه كما في قول كعب (١) :

لكنها خُلَّتْ قد سَيْطَ من دَمِهَا فَجَجِعُ وَوَلَعُ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ

أريد به المفعول هنا . أى أنزل عليهم ما خلط لهم من أنواع العذاب . قيل : وبما ذكر

سميت الآلة المعروفة، وهى الجلد المصفور الذى يضرب به، لكونه مخلوط الطاقات بعضها ببعض .

وإما أن يكون السوط الآلة المعروفة . استعيرت لعذاب أدون من غيره . وهو ما اختاره

الزخشرى حيث قال : وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم ،

بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .

وقيل : هو من قبيل (لجن الماء) أى عذاباً كالسوط فى شدته ، وهو ما يقتضيه كلام

الطبرى ، حيث زعم أن السوط مَثَلٌ لشدة العذاب .

قال الشهاب : وأما استعارة الصب للعذاب فشائعة ، كالإذافة . يقال : صب عليه السوط ،

وقنعه به وغشاه . وهو تمثيل وتصوير لحوله أو تقابله عليه وتكرره . « إِنَّ رَبَّكَ

لَبِئْسَ لِمُرْصَادٍ » أى لهؤلاء الذين قصّ نأه هلاكهم ، ولضربائهم من الكفرة بالحق والعاثين

بالفساد . و (المرصاد) اسم مكان للذى يتربص فيه الرصد - جمع راصد - أو صيغمة مبالغة .

كطعام ومطعمان . فالباء تجريدية وفيه استعارة تمثيلية . شبه كونه تعالى حافظاً لأعمال العباد ،

مترقباً لها ومجازياً على تغييرها وقطيرها . بحيث لا ينجو منه أحد - بحال من قعد على الطريق

مترصداً لمن يسلكها ، ليأخذه فيوقع به ما يريد . ثم أطلق لفظ أحدهما على الآخر .

ثم أشار إلى غفلة الإنسان فى حالى غفاه وفقره . ونعى عليه شأنه فىهما ، بما يقرر ما تقدم

من استحقاقه صبّ العذاب ، بقوله تعالى :

(١) من قصيدته التى مطلعها :

بَانَتْ سَعَادُ فِقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مَتِّيمٌ إِثْرَهَا ، لَمْ يُفَدَ ، مَسْكَبُولُ

سَيْطَ : خَلِطَ . الْفَجَعُ : الْمَصِيبَةُ . الْوَلَعُ : السُّكْذِبُ ، وَالْإِخْلَافُ فِي الْمَوْعِدِ ، وَتَبْدِيلُ

خَلِيلٍ بِآخَرٍ .

انظر شرح السكرى ص ٨

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ وَفَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

[١٦] (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ)

« فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ وَفَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ » أى بالنبي واليسار « فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ » أى فضلنى ، لما لى عنده من الكرامة « وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيقه عليه وقتره ، فلم يكثر ماله ولم يوسع عليه « فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ » أى أذلنى بالفقر. وذلك لسوء فكره وقصور نظره فى الحالين . فإنه إنما ابتلاه بالغنى ليقوم بواجبه ويعرف حق الله فيه . وبالفقر ليظهر بمظهر العفاف ويتخلق بمخلق الصبر على الكفاف . فى كل ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب . ونظير الآية ، آية (١) (وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) وآية (٢) (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَل لَّا يَشْعُرُونَ) وآية (٣) (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (كَذَلَّا بَل لَّا تُكْرَمُونَ الْيَتِيمَ)

[١٨] (وَلَا تَحْسَبُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ)

[١٩] (وَتَأْكُلُونَ التَّرَاتِ أَكْلًا لَّمًّا)

[٢٠] (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا)

« كَذَلَّا » ردع عن قوليه فى حاله . أعنى اعتقاد الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى المنع ،

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٥] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٥٦ و ٥٥] .

(٣) [٧٠ / المعارج / ١٩ - ٢٢] .

بل لطلب الشكر . وهو صرف النعم إلى ما خلقت له ، وإعطاء المال لذويه ، وأحقهم الأيتام وهم لا يفعلونه ، كما قال « بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ » وهو من فقد كافلة ومربيه . فإن من آكد الواجبات القيام على تأديبه وكفالاته، صونا له إذا أهمل من فساد طبيعته وعيته بالضرر في أهل جيلته . ومثله التحاض على مواساة البؤساء . وهؤلاء المنعم عليهم ضلالهم في غفلة عنه، كما قال « وَلَا تَحْضُونَنَا عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ » أي لا يحض بعضكم بعضاً عليه ولا يتواصى به . قال الإمام : وإنما ذكر التحاض على الطعام ، ولم يكتف بالإطعام فيقول (ولم تطعموا المسكين) ليصرح لك بالبيان الجلي أن أفراد الأمة متكفلون . وإنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع التزام كلٍّ لما يأمر به ، وابتعاده عما ينهى عنه .

لطيفة :

قال القاشاني ، في دلالة قوله تعالى (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ) الخ : أي الإنسان يجب أن يكون في مقام الشكر أو الصبر بحكم الإيمان، لحديث (الإيمان نصفان . نصف: صبر، ونصف شكر) لأن الله تعالى إما إن يتقبله بالنعمة والرخاء ، فعليه أن يشكره باستعمال نعمته فيما ينبغي من إكرام اليتيم وإطعام المسكين وسائر مرضيه . ولا يكفر نعمته بالبطر والافتخار فيقول : إن الله أكرمني لاستحقاقي وكرامتي عنده . ويترفه في الأكل ويحتجب بحجة المسال ويمنع المستحقين . أو بالفقر وضيق الرزق فيجب عليه أن يصبر ولا يجزع ولا يقول : إن الله أهانني . فربما كان ذلك إكراماً له . بأن لا يشغله بالنعمة عن النعم ، ويجعل ذلك وسيلة له في التوجه إلى الحق والسلوك في طريقه لعدم التعلق ، كما أن الأول ربما كان استدرأجاً منه . انتهى . « وَتَأْكُلُونَ الْبُيُوتَ كَمَا كَلَّامًا » قال ابن جرير^(١) : أي تأكلون الميراث أكلاً شديداً ، لا تتركون منه شيئاً . من قولهم (لمت ما على الخوان أجمع فأنا له لماً) إذا أكلت ما عليه فأنت على جميعه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

قال ابن زيد : كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار ، وقرأ^(١) (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ، قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّىٰ النِّسَاءِ أَلَّسِي لَا تُوْثِقُونَ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْمِعِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ) أى لا تورثونهن أيضا . وقال بكر بن عبد الله : اللّم : الاعتداء في الميراث . يأكل ميراثه وميراث غيره « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » أى جمعه وكنزه ، حبًّا كثيراً شديداً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا)

[٢٢] (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا)

[٢٣] (وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ)

[٢٤] (يَقُولُ يَلَيِّتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي)

[٢٥] (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا)

[٢٦] (وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا)

« كَلَّا » ردع لهم عن ذلك ، وإنكار لفعلهم . وما بَمَدِّهِ وعيد عليه بالإخبار عن ندمهم وتحسرهم حين لا يفقههم الندم « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا » أى دكا بعد دك حتى عادت هباءً منثوراً .

قال الشهاب : ليس الثانى تأكيذا ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب . كقرأت النحو باباً باباً . وجاء القوم رجلاً رجلاً ، و(الدك) قريب من الدق ، لفظاً ومعنى « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » قال ابن كثير : أى وجاء الرب ، تبارك وتعالى ، لفصل القضاء ، كما يشاء . والملائكة بين يديه صفوفاً صفوفاً . وسبقه ابن جرير إلى ذلك وعضده بآثار عن ابن عباس وأبي هريرة

(١) [٤ / النساء / ١٢٧] .

والضحك في نزوله تعالى من السماء يومئذ في ظلل من الغمام ، والملائكة بين يديه ، وإشراق الأرض بنور ربها . ومذهب الخلف في ذلك معروف ، من جمل الكلام على حذف مضاف ، للتهويل . أى جاء أمره وقضاؤه . أو استعارة تمثيلية لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه . قال الزمخشري : مثلت حاله في ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه ، ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم . انتهى .

وكانَّ الخلاف بين المذهبين لفظيَّ ، إذ مبنى مذهب الخلف على أن الظاهر غير مراد . ويعنون بالظاهر ما للخلق مما يستحيل على الخالق ، فوجب تأويله . وأما السلف فينسكرون أن معنى الظاهر منها ما للخلق . بل هو ما يتبادر إلى فهم المؤمن الذي يعلم أن ذاته تعالى ، كما أنها لا تشبه الذوات ، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات . لأنها لا تكيف ولا تعلم بوجه ما . فهي حقيقة النسبة إليه سبحانه ، على ما يليق به . كالمعلم والقدرة . لا تمثيل ولا تعطيل . قال الإمام ابن تيمية رضى الله عنه : واعلم أن من المتأخرين من يقول إن مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد . وهذا لفظ مجمل . فإن قوله (ظاهرها غير مراد) يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين . مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلَّى ، أنه مستقر في الحائط الذي يصلى إليه ، و(إن الله معنا) ظاهره أنه إلى جانبنا ، ونحو ذلك . فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال إن مذهب السلف أن هذا غير مراد ، فقد أصاب في المعنى ، لكن خطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث . فإن هذا المجال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضوع . اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار ، معذوراً في هذا الإطلاق . فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية . انتهى .

وقد بسط رحمه الله الكلام على ذلك في (الرسالة المدنية) وأوضح أن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات ، يحمذى حذوه ويتبع فيه مثاله . فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات كيفية .

وقال رحمه الله في بعض فتاويه : نحن نقول بالمجاز الذى قام دليله . وبالتأويل الجارى على نهج السبيل . ولم يوجد فى شيء من كلامنا وكلام أحد منا ، أنا لا نقول بالمجاز والتأويل . والله عند لسان كل قائل . ولكن نفكر من ذلك ما خالف الحق والصواب ، وما فتح به الباب ، إلى هدم السنة والكتاب والالحاق بمحرقة أهل الكتاب . والمنصوص عن الإمام أحمد وجمهور أصحابه ؛ أن القرآن مشتمل على المجاز . ولم يعرف عن غيره من الأئمة نص فى هذه المسألة . وقد ذهب طائفة من العلماء من أصحابه وغيرهم ، كأبي بكر بن أبي داود ، وأبي الحسن الخرزى ، وأبي الفضل التيمى ، وابن حامد ، فيما أظن ، وغيرهم ، إلى إنكار أن يكون فى القرآن مجاز . وإنما دعاهم إلى ذلك مارأوه من تحريف المحرفين للقرآن بدعوى المجاز . فقابلوا الضلال والفساد ، بحسم المواد . وخيار الأمور التوسط والاقتصاد . انتهى .

« وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ » أى أظهرت حتى رآها الخلق وعلم الكافر أن مصيره إليها . فجميعها متجاوز به عن إظهارها . كما صرح به آية^(١) (وَبُرِزَتْ أُلْجَجِيمُ لِمَنْ بَرَى) « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ » تفریطه فى الدنيا فى طاعة الله وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال « وَأَنْتَ لَهُ أَلْذَكَّرَى » أى منفعتهما . فالمراد بتذكرة ندامته على تفریطه فى الصالحات من الأعمال التى تورثة نعيم الأبد ، كما فسره بقوله تعالى « يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي » أى أسلفت من الأعمال الصالحة لحياتى هذه . فاللام للتعميل . أو : قدمت وقت حياتى . فاللام بمعنى وقت . والحياة هى التى فى الدنيا « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَدِّبُ عَذَابُهُ وَاحِدٌ » أى لا يعذب كعذاب الله ، أحد فى الدنيا « وَلَا يُؤْتِقُ وَثَاقَهُ وَاحِدٌ » أى لا يوثق كوثاقه يومئذ أحد فى الدنيا . وقرئ (يُعَدِّبُ وَيُؤْتِقُ) على بناء المجهول .

(١) [٧٩ / النزاعات / ٣٩] .

قال السمين : وعذاب ووثاق في الآية ، واقمان موقع تعذيب وإيثاق . والمعنى لا يعذب أحد تعذيباً مثل تعذيب الله هذا الكافر . ولا يوثق أحد إيثاقاً مثل إيثاق الله إياه بالسلاسل والأغلال . فالوثاق في الآية بمعنى الإيثاق . كالعطاء بمعنى الإعطاء .
ثم أشار إلى ما يقال لمن آمن وعمل صالحاً ، في مقابلة من تقدم ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ)

[٢٨] (أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)

[٢٩] (فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي)

[٣٠] (وَأَدْخُلِي جَنَّتِي)

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ » أي الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن . وهي التي كان قلبها اطمأن بذكر الله وطاعته وخشيته من الاضطراب « أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ » أي وعده وثوابه « رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » أي راضية بما أوتيت ، مرضية عند ربها « فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي » أي في زميرهم ، وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون « وَأَدْخُلِي جَنَّتِي » أي معهم . وهذا القول إما عند الموت أو البعث أو دخول الجنة . ومن غرائب المأثور هنا ، تأويل النفس بالروح ، والرب بصاحبها . أي ارجعي إلى جسد صاحبك إيداناً بأن الأرواح المطمئنة تردّ يوم القيامة في الأجساد ، وأن لها مقرّاً قبل تعلقها بالبدن في عالم الملكوت . والمسألة من الغوامض بل من الغيوب . وبمعرفة نظائر التنزيل ، يظهر بُعد هذا التأويل .